الهويّات المركبة والدولة المدنيّة: لبنان نموذجًا

بتاريخ ٢١ أيلول ٢٠٢٣م، ناقش الطالب عامر زياد جلّول في كلية الدراسات الإسلامية في جامعة المقاصد في بيروت، رسالة الماجستير التي حملت عنوان «الهويّات المركبة والدولة المدنيّة: لبنان نموذجًا» وتألفت لجنة المناقشة من: الدكتور حسان غزيري رئيسًا، والأستاذة الدكتورة تغاريد بيضون قارئة، والأستاذ الدكتور محمد خير فرج مناقشًا والأستاذ الدكتور رضوان السيد مشرفًا. وبعد المناقشة منحت اللجنة الطالب درجة الماجستير بدرجة «جيد جدًّا».

وجاء في التمهيد للرسالة أن سقوط الدولة العثمانيّة يعدّ تاريخًا مفصليًّا في الحركات الحضاريّة عمومًا والمشرق خصوصًا، بعد ذلك السقوط الذي خلّف فراغًا سياسيًّا عميقًا، إذ تحوّلت المنطقة برمّتها إلى تشكيلاتٍ سياسيّة جديدة وحديثة، متشبهة بالنموذج الأوروبيّ؛ كمحاولة لإنشاء دولة على النسق الغربي، ولكنّها فشلت، واصطدمت بالكثير من العقبات التي سوف تكوّن جانبًا من الدراسة. وقد تشابهت مع ما نتج بعد سقوط الدولة العباسيّة من حيث التأثير في التحوّلات الاجتماعيّة والسياسيّة كما في نشوء جمعيّات قوميّة سياسيّة، واللافت في الموضوع أنّ الدولة العثمانيّة في مراحلها بين الصعود والسقوط لم تكوّن هويّة وطنيّة قادرة على أن تتجاوز الاختلافات غير المحصورة بالثقافة والتقاليد المجتمعيّة، وبدت هذه الاختلافات مرتبطة بالسرديّات التاريخيّة والدينيّة والطائفيّة لكلّ الجماعات الخاضعة للدولة العثمانية، هذه الاختلافات شكّلت التحدّي الأكبر الذي لم تستطع الدولة العثمانيّة

استيعابه، رغم الكثير من المحاولات الإصلاحية التي قادها السلطان عبد الحميد، علمًا أنّ أزمة الهويّات المتناقضة كانت قد سبقت الإصلاح المنشود.

إنّ التطوّرات التي رافقت رحلة الشرق عبر التاريخ تُعتبر من قبل البعض سيرورة حتميّة بالنظر إلى ما وصلت إليه، والبعض الآخر يعتبر أنّ هناك ظروفًا استثنائيّة طرأت وبدّلت الأمور، برمّتها، شكّلت سببًا بتغيير وجهها الإنسانيّ والحضاريّ والروحيّ والمادّيّ. هذا الالتباس سببه التعقيد الذي يرافق عمليّة قراءة التاريخ والحكم عليه. فهل تعد الأحداث التاريخيّة من الأمور التي تكرّر ذاتها؟ وهل تعد الأحداث التاريخيّة سيرورة طبيعيّة تمرّ بها الشعوب؟

إنّ الشرق الحاليّ شكّل انعكاسًا لعقليّة المستعمر الذي استوطن بلادنا لفترة زمنيّة ليست قصيرة، وكانت فترة وجوده في بلادنا حاسمة وخطيرة أدّت إلى تحوّر ذلك الشرق إلى مستنقع، يخرج من حرب ويدخل في أخرى، فالعقل البشريّ الذي كرّس قوّة تفكيره للإنتاج المادّيّ البحت والمجرّد، هو نفسه العقل الاستعماريّ الذي عكس فكره الكولونياليّ والتجزيئيّ على المنطقة.

ارتكزت إشكالية الدراسة على التساؤلات الرئيسية التي تحاول هذه الدراسة الإجابة عنها، وتندرج **في ما يأتي**:

١ ـ هل هناك إمكانية للخروج من الأزمات الهوياتية عن طريق إيجاد نقاط مشتركة صلبة قادرة على بناء هويّة وطنية مركبة مرنة قادرة على التكيف والتأقلم مع المنعطفات الخطيرة؟

٢ ـ هل هناك إمكانية للخروج من الأزمات عن طريق تنظيم الهويات الفرعية من مثل الهوية الدينية والطائفية؟

٣ ـ ما هي الإمكانيات التي تعدّ قادرةً على تحقيق الخلاص والشروع في إنشاء الدولة المدنية؟

وهدفت الرسالة إلى تكوين هوية متصالحة مع الهويات الفرعية التي تمكّن من بناء دولة مدنية حقيقية تساوي بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

وفي التوصيات، خلصت إلى التشديد على رفع الوعي المجتمعي، وشرح أهميته في تحصين المجتمعات الإنسانية فيما يخص الهويات، المركبة خصوصًا في فترات الانهيارات الاقتصادية والاضطرابات الاجتماعية التي تسهم في تقدم الهويات الفرعية والعصبيات. وقد تبين لنا ضرورة تكوين خطاب سياسي هادئ وهادف ووطني، إضافةً إلى ترشيد الخطاب الديني الذي يقوم على دعم المواطنة الصلبة والحقيقية، وكل تلك العناصر تشكّل اللبنة الأساسية ضمن مشروع الهويات المركبة والدولة المدنية.

وإننا نضع في النهاية كل الجهد الذي تم بذله في هذا العمل في إطار الاجتهاد والسعي لتقديم رؤية علمية وطنية متطورة، مستفيدين من تجارب الشعوب والأمم التي نتشارك معها الظروف الاجتماعية والسياسية المتشابهة.